﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [الجاثية: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الصَّفحُ عن أذى المشركين مِن أخلاق المؤمنين

لمّا عَلَّمَ الله تعالى عبادَه دلائل التَّوحيد والقدرةِ والحكمةِ؛ أتبعَ ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لمّا قال: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ [الجاثية: 11]، وكان المشار إليه هو القرآن؛ بيَّن نوعًا لطيفًا من الهدى الَّذي يشتمل عليه القرآن، وهو العفو والمسامحة؛ لاستعطاف الكافرين وتأليف قلوبهم للإيمان، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾.

وأيضًا لمّا كان قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧﴾ [الجاثية: 7] إلى قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩﴾ [الجاثية: 9] يثير غضب المسلمين على المستهزئين بالقرآن، وقد أخذ المسلمون يغترّون بكثرتِهم، فكان ما ذُكرَ من استهزاء المشركين بالقرآن واستكبارِهم عن سماعِه يتوقَّع منه أن يبطش بعض المسلمين بالمشركين، فقال تعالى مبيِّنًا أثر المغفرة في استعطاف المشركين: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[2].

وأيضًا لمّا ذكر الله تعالى من حال المشركين أنَّهم إذا علموا من آيات الله شيئًا؛ اتخذوها هزوًا، وكان هذا داعيًا المؤمنين إلى أن يردّوا عليهم، فلكي يكون للمشركين إصاخة إلى أنَّ ما ساقه الله تعالى من دلائل قدرتِه وسوابغ نعمِه، ويكون منهم نظر إلى ما سخَّر للنّاس في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 673.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 338.

السَّماوات وفي الأرض؛ كان على المؤمنين ألّا يدخلوا معهم في مجال الخصومة الحادَّة، والجدل العنيف؛ لكي لا يشغلوا بالرَّدِّ على المؤمنين عن النَّظر في أنفسهم والإفادة من آيات الله الَّتي تتلى عليهم، كما أنَّ في العفو عنهم تأليفًا لقلوبهم واستعطافًا لهم وإتمامًا لإقامة الحجَّة عليهم، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغۡفِرُواْ﴾: أصلُ (غفر) يدلُّ على التَّغطيةِ والسَّتْرِ، ومنه الغَفر والمَغفرة، يُقالُ: غَفَرَ الله ذنْبَهُ غَفْرًا ومغْفرةً وغُفرانًا، أي: سَتَرَها، وتجاوَزَ عنها[2]، والغُفرانُ والمغفرةُ مِن الله هو أن يصونَ العبد من أن يمسَّه العذابُ[3]، وعليه فالمُراد بها في الآية: الصَّفْحُ عن المشركين والعفو عنهم والإعراض عن أذاهم[4].

2) ﴿يَرۡجُونَ﴾: أصلُ (رجا) يدلُّ على الأمل، يُقالُ: رَجا حُصولَ الشَّيء، يرجو رجاءً ورجاوَةً، أي: أمَّلَ وُقوعه، وضدُّه: اليأسُ والقُنوطُ[5]، ويأتي الرَّجاءُ بمعنى الطَّمع في الشَّيءِ، فيُقالُ: رجا الخيرَ، أي: طَمِعَ فيه، والتَّرجِّي، والارتجاء، والتَّرجِية، كلُّ ذلك بمعنى الرَّجاء[6]، ومن معانيه أيضًا: التَّرقُّب، والظَّنُّ، والخَوفُ[7]، والمقصود بالرَّجاء في الآية: ترقُّبُ الأمْرِ وتوقُّعه وتَطَلُّبُه، فقد يُقصد به ترقُّب العذاب، فيكون على المجاز، أو تطلُّب المحبوب بمعنى: رجاء الثَّواب[8].

3) ﴿أَيَّامَ﴾: أصلُ (يوم) كلمةٌ واحدةٌ، هي اليومُ الواحد من الأيّام، واليومُ مِقدارٌ من الزَّمان، أوَّله طُلوعُ الشَّمس أو من طلوع الفجر الصّادق إلى غُروب الشَّمس[9]، ومِن مَعاني اليوم: الوَقْتُ، والزَّمَنُ، تقولُ: خَبَّأْتُ المالَ لِهذا اليَومِ، أي: لِهذا الوَقتِ، والجَمعُ: أيّامٌ[10]،

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(3) الراغب، المفردات: (غفر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 338.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجا - رجو).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رجو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجى)، والزبيدي، تاج العروس: (رجو).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (رجو)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 340.
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (يوم).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (يوم).

ثمَّ يستعيرونه في الأمْرِ العظِيم، ويقولونَ: نِعْمَ فُلانٌ في اليوم؛ إذا نزل[1]، ولفظ يوم - مفرده أو جمعه - إذا أُضِيفَ إلى اسم أحدٍ أو قومٍ أو قبيلةٍ كان المرادُ به اليومَ الَّذي حصلَ فيه لمن أُضِيفَ هو إليه نَصْرٌ وغلَبٌ على مُعاندٍ أو مُقاتلٍ، ومنه أُطلِقَ على أيّام القتالِ المشهورة بين قبائل العرَب: أيّامُ العرَب، فمعنى أيّام اللّه وقائعه بأعدائه أو أيّام نصر اللّه للمؤمنين وثوابهم ووعدهم بها[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ الحقُّ نبيَّه ﷺ أن يَحُضَّ المؤمنينَ على التَّجاوُزِ والصَّفحِ عن المشركينَ الَّذين يُؤذونَهم حتَّى يأتيَ اللّهُ بأمرِه، فيقولُ سبحانه: قل - أيُّها النَّبيُّ الكريم - للمؤمنين: اغفروا لمن أساءَ إليكم؛ فيغفروا، ويصفحوا عن الأذى الَّذي أصابهم مِن الَّذين لا يَرجونَ ثوابَ اللّه، ولا يَخافونَ وقائعَه، وأن يَصبِروا على أفعالهم، ولا يُعاقِبوهم، إنَّما أُمِرَ المُؤمِنونَ بالمَغفرةِ للَّذين يُؤذونَهم؛ ليجزيَ اللّهُ أعداءَهم هؤلاء بما كسبوه مِن آثامٍ، فيُعَذِّبَهم[3].

التَّجاوز عن أذى المشركين والصَّفح عنهم لجهلِهم لوقائع اللّه وعظيم ثوابِه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الخطاب بفعل الأمر ﴿قُل﴾:

جاء الخطاب بصيغة فعل الأمر ﴿قُل﴾ الموجَّه إلى رسول اللّه ﷺ - مع أنَّ رسول اللّه ﷺ مأمور بتبليغ جميع القرآن - للاهتمام بحصول الأمر وإيقاعِه، ولاسترعاء أسماع المخاطَبين لِما سيَرِدُ بعدَ فعلِ ﴿قُل﴾، فيكون أوثق في تحقيق الأمر؛ لأنَّه مبنيٌّ على تلقين

ما يأمر به رسولُ اللّه ﷺ هو عين ما يأمر به اللّه تعالى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 139، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 185، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 80، والواحدي، الوسيط: 4/ 96 - 97، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 266، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 880، وابن عثيمين - سورة فصلت، ص: 282.

اللّه تعالى لرسوله ﷺ ما يقوله للمؤمنين، ولتنبيه المخاطَبين من المؤمنين على أهمّيَّة المقول لتترقَّبه أسماعهم بشوقٍ، ويكون فيه مزيدُ اعتناء بشأن المأمور به، وفيه إشعار بأنَّ ما يأمر به رسول اللّه ﷺ هو عين ما يأمر به اللّه تعالى، كما أنَّ في الخطاب بـ﴿قُل﴾ تشريفًا للمخاطَب، وهو رسول اللّه ﷺ، ولِمن يبلِّغون بالخطاب، وهم الذين آمنوا.

تعيين المقصود بالخطاب في ﴿قُل﴾:

الخطاب لمعيَّن والمقصود جميع المؤمنين

الخطاب بـ﴿قُل﴾، وإن كان في الأصل لمعيَّن، وقصد به هنا رسول اللّه ﷺ؛ لأنَّه الذي يوحى إليه، لكنَّه يقصد به العموم، بقرينة أنَّ الخطاب لجميع المؤمنين، وتجريدُ الخطاب للنَّبيِّ ﷺ مع أنَّ الخطاب للعموم للمبالغة في ترغيب المؤمنين على امتثال الأمر، وقد جاء في الحديث: «كانَ النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ يَعفونَ عنِ المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ، كما أمرَهمُ اللّه، ويصبرونَ على الأذى»[1].

سبب توجيه الأمر إلى رسول الله ﷺ:

العفو عن الكافرين والصَّفح عنهم ممّا يصعب على النَّفس، ولا يطيقه إلّا المؤمنون

في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ﴾ وُجِّه الأمر إلى رسول اللّه ﷺ؛ ليبلِّغ المؤمنين، ويأمرهم، ولم يتوجَّه الأمر إلى المؤمنين مباشرة؛ للإشعار بأنَّ العفو عن الكافرين والصَّفح عنهم ممّا يصعب على النَّفس، ولا يطيقه إلّا المؤمنون، فإنَّ في أمر اللّه تعالى رسولَهُ الكريم ﷺ بتبليغ المؤمنين وأمرِهم اجتماعًا لأمر اللّه تعالى وأمر رسولِه ﷺ، على أن يمتثل المؤمنون، فيغفروا للَّذين لا يرجون أيّام اللّه.

غرضُ الأمرِ في قوله: ﴿قُل﴾:

جاء الأمر في قولِه: ﴿قُل﴾ للإيذان بأنَّ المأمور به متعيَّن، فهو أمرٌ بطريقِ التَّكليفِ والتَّشريعِ.

(1) البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث: (4290).

فائدة اللّام في ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

كلُّ ما يقوله رسول الله ﷺ فيه نفعٌ للمؤمنين

اللّام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ لام التَّبليغ، وهي تفيد تقوية فعل القول عندما لا تكون هناك حاجةٌ لذكر المواجهة بالقول، ولمّا كان الأمر على سبيل الامتثال للأمر؛ أفادت اللّام كذلك معنى النَّفع، أي: إنَّ هذا القول فيه نفعٌ للَّذين آمنوا.

مناسبةُ التَّعبير بالموصول وصلته:

الإيمان يصنع العجائب، فبسببه يصفح المؤمنون عن أذى الكافرين

عبَّر بالموصول وصلته في قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ - دون أن يأتي بالاسم الظّاهر، فيقال: (قل للمؤمنين) - لمدحهم والثَّناء عليهم، وللإيماء إلى أنَّ جملة الصِّلة معلومة الانتساب إلى مشارٍ إليه حاضر في أذهان المخاطَبين، بمعنى: أنَّ الَّذين آمنوا معروفون وحاضرون، كما أفاد التَّعبير بجملة الصِّلة الإيماء إلى سبب الأمر بالمغفرة ووجه امتثالِهم له، بمعنى: أنَّه لولا إيمانُهم بالله وبرسوله؛ لَما أمروا هذا الأمر، وأنَّ إيمانَهم سبب في مغفرتِهم للَّذين لايرجون أيّام الله، وفي التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه إشارةٌ، كذلك إلى تعظيم أمرِ الإيمان.

علَّةُ اختيار عنوان الإيمان:

الإيمانُ بالله وبرسولِه يقضي على المؤمنين الامتثال لأمر رسول الله ﷺ

اختيرَ عنوانُ الإيمان في قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون أن يذكر عنوان التَّقوى أو الصلاح مثلًا؛ للإشعار بأنَّ الإيمان بالله وبرسولِه يقضي على المؤمنين الامتثال لأمر رسول الله ﷺ، وأن يغفروا للَّذين لا يرجون أيّام الله، وأنَّ مغفرتَهم لهم هي بمقتضى إيمانِهم لعلمِهم بأنَّ الله تعالى الذي آمنوا به هو الَّذي يجازيهم على أعمالِهم يوم القيامة.

نكتة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾، وحذف متعلّق الإيمان:

الثَّناء على المؤمنين بسرعة استجابتهم لنداء الإيمان

عبَّرت الآية الكريمة بالفعل الماضي في لفظ الإيمان؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الإيمان قد تحقَّق فيهم بمجرَّد أن سمعوا به، وكذلك حذفت الآية متعلّق الإيمان، فلم تقل مثلًا: إنَّهم آمنوا بالله ورسوله، أو باليوم الآخر للتَّعميم؛ وذلك حتّى يشمل كلَّ أركانه.

سرُّ حذف الأمر وإقامة جوابه مقامه:

المؤمنون بمجرَّد لمـجـهـم لأمـر رسـول الله ﷺ يقومون بالأمر، ويمتثلون له

في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ﴾ حُذِفَ مقولُ القول، وهو (اغفروا)، وأقيم جواب الطَّلب مقامه لدلالته عليه، فجرى الكلام على ظاهر اللَّفظ، كأنَّه أقام الفعل ﴿يَغۡفِرُواْ﴾ مقام جواب: ﴿قُل﴾، وتقدير الكلام: قل للَّذين آمنوا: اغفروا؛ إن قلت لهم: اغفروا، يغفروا، وسرُّ حذف مقول القول، وهو فعل الأمر (اغفروا) هو أنَّه لمّا كان لا يلزم من الأمر بالمغفرة أن يغفروا؛ لجواز تخلُّف الامتثال عن الأمر؛ آذن إقامة جواب الطَّلب المحذوف مقام الطَّلب بفرط طواعية الذين آمنوا لرسول الله ﷺ وسرعة مبادرتهم إلى العمل بأمره وانقيادهم له، بحيث لا ينفكُّ فعلهم عن أمره، وآذن كذلك بأنَّ أمْرَه ﷺ كالسَّبب الموجبِ لفعلِهم، فصوَّره كالأمر الواقع الحاصل قبل سماعِ الأمر، فكأنَّهم بمجرَّد لمحِهم أمْرَ رسول الله ﷺ يقومون بالأمر قبل سماعِهم له، ففيه مدح للمؤمنين أيَّما مدح؛ لأنَّ فيه ثقةً بالمؤمنين أنَّهم إذا قال لهم الرَّسول ﷺ؛ امْتَثَلوا، كما أنَّ فيه حثًّا على الإسراع إلى امتثال أمر رسولِ الله ﷺ في كلِّ ما يأمر به، وذهب بعض المفسِّرين إلى جواز أن يكون التَّقدير: قل للَّذين آمنوا: ليغفروا، فيكون الفعل المضارع مجزومًا بلام الأمر المحذوفة.

نكتة اختيار مفردة المغفرة دون العفو والصَّفح:

المـؤمـن إذا غفر لأهـل الـجـرائـم يـصـير متخلِّقًا بأخلاق الحقِّ

عبَّر بالمغفرة في قوله: ﴿يَغۡفِرُواْ﴾، دون أن يقال: قل للَّذين آمنوا يعفوا عن الذين لا يرجون أيّام الله، أو يقال: قل للذين آمنوا يصفحوا؛ لما يفيده لفظ المغفرة من معنى السَّتر المقتضي للتَّجاوز عن أقوال الذين لا يرجون أيّام الله، وعن أفعالِهم مع المؤمنين، ومسامحتِهم وإقالتِهم مع إثابتِهم والإحسان إليهم، فإنَّ المغفرةَ تكون بالقول وبالفعل، وأمّا العفو؛ فهو يدلُّ على محو الذَّنب وإسقاط العقاب، وأمّا الصَّفح؛ فيدلُّ على ترْكِ المؤاخذة على الذَّنب بترك

العقاب وترك اللَّوم، فكان التَّعبير بالمغفرة أوفقَ بالمقام؛ لأنَّه طلب من المؤمنين ستْرَ ذنوب الكافرين والتَّجافي عنها في الظّاهر دون الباطن مع الإحسان إليهم[1]، ولئلّا يعيِّروا الكافرين بذنوبِهم، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ المغفرةَ أعلى مراتب مكارم الخُلق الَّتي يقتضيها الإيمان باللّه وبرسولِه ﷺ.

نوعُ اللام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

اللّام في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ هي لام الاختصاص، بمعنى: أنَّ مغفرة المؤمنين هي مختصَّة بالَّذين لايرجون أيّام اللّه، ففي الاختصاص أعلى مراتب حسن الخلق للمؤمنين مع الكافرين، كما تقدَّم.

مناسبةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

عبَّر بالاسم الموصول وصلتِه في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾؛ للتَّعريض بإهانة الكفّار وقبح فعلِهم في كونِهم لا يرجون أيّام اللّه، وللإيماء إلى أنَّهم لايستحقّون المغفرة، وإنَّما هو فضل من المؤمنين، كما أنَّ في مجيءالموصول وصلتِه إشعارًا بالمقابلة بين التَّعظيم الذي أفاده ذكر الإيمان والإهانة الَّتي أفادها ذِكرُ الذين لايرجون أيّام اللّه، ولهذا لم يقل موجزًا في الكلام: (قل للمؤمنين: يغفروا للكافرين)؛ ليكونَ التَّعبير بطريق الإطناب أوفى للمعنى.

الكافر المؤذي لا يستحقُّ الصَّفح عنه، وإنَّما هو فضل من المؤمنين

بلاغةُ التَّعبير بقولِه: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ بين المجاز والحقيقة:

يحتمل أن يكون قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ على طريق الاستعارة التَّهكّميَّة، والمراد: لا يخافون أيّام اللّه، ولا يبالون نقمتَه، فشبَّه الخوف بالرَّجاء على سبيل التَّهكُّم؛ لأنَّهما متباعدان ونكتة التَّعبير بالاستعارة التَّهكّميَّة: التَّنبيه إلى فرط غفلة الكافرين عن أيّام اللّه، ويحتمل أن يكون الرَّجاء مجازًا عن التَّوقُّع، والمعنى: لا يتوقَّعون أيّام اللّه، أي: وقائعه بأعدائِه،

الانـهـمـاك في الشَّهوات يؤدّي إلى الغفلة عن أيّام الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صفح، عفو، غفر).

فإنَّ الراجي شيئًا يتوقَّعه، ولا يقطع بحصولِه، وأجاز بعض المفسِّرين أن يكون الرَّجاء على أصل معناه، فيكون على الحقيقة، ويكون المرادُ بأيّام الله نِعَمَهُ وثوابَهُ، أي: لا يأملون الأوقات الَّتي وقَّتها الله لثواب المؤمنين، ووعدهم الفوز فيها[1].

دلالة استعمال النَّفي في قوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ دون الإثبات:

لم يقل: قل للَّذين آمنوا يغفروا للَّذين أساؤوا إليهم، بل قال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لحثِّهم على فعل الرَّجاء وبيان أنَّه المخلِّص لهم من الوقوع في عذابه، وللإيذان بأنَّ مغفرتَهم لهم ليس لكونهم أساؤوا لهم، بل لكونِهم لايرجون أيّام الله، فالأمر متعلِّق بجهل الكافرين عقاب الله، فليس للمؤمنين حظٌّ في أنفسهم عندَ مغفرتِهم للكافرين والصَّفح عنهم.

ليس للمؤمنين حظٌّ في أنفسهم عندَ مغفرتهم للكافرين والصَّفح عنهم

نكتةُ نفي الرَّجاء دون نفي الإيمان:

أوثِرَ نفيُ الرَّجاء في قوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ دون نفي الإيمان؛ لأنَّه لمّا طلب المغفرة؛ ناسب تعليقها بمن لا يرجو أيّام الله، ويجهل عظم عقاب الله لأعدائِه، فيقع منه التَّجاوز في الكلام المؤذي والفعل الفاحش، فإنَّ من لا يرجو أيّام الله، ولا يخاف عقابَه؛ يتجاوز في كلامِه وفعلِه، ولا يهتمُّ بالعاقبة، فليس سبب طلب المغفرة هو كفر الكافرين بل الأمر متعلِّق بجهلِهم بأيّام الله، وما يصدر منهم بسببه من التَّجاوز في الأقوال والأفعال، ولمّا طلب المغفرةَ للَّذين لايرجون أيّام الله؛ تضمَّن الكلامُ أعظمَ ترغيبٍ في الحثِّ على الغفران للموافق في الدين[2].

إن كان الله أمر المؤمنين أن يصفحوا عن الكافرين فالصَّفح عن الموافق في الدّين أولى وأرغب

وفي التَّعبير عن نفي الإيمان بنفي الرَّجاء نوعٌ من المجاز المرسل

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 13/ 353، والزمخشري، الكشاف: 4/ 288، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 83، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 79.

لعلاقة السَّببيَّة والمسبَّبِيَّةِ، فإنَّ نفي الإيمان بالله مستلزمٌ لنفي الرَّجاء بأيّامه.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع:

طلبُ المغفرة من المؤمنين مستمرٌّ وإن استمرَّ كفرُ الكافرين

عبَّرَ بصيغة المضارع في قوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾؛ للإشعار بتجدُّد عدم رجاءِ الكافرين أيّام الله واستمرارِه، ويقتضي أنَّ طلب المغفرة من المؤمنين مستمرٌّ وإن تجدَّد عدم رجائِهم، فضلًا عن إفادة هذا الفعل استحضار هذه الصّورة البشعة لهم، وهم ينصرفون عن فعل الرَّجاء.

بلاغةُ المجاز في قوله تعالى: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾:

الكافرون لا يترقَّبون أيّام عذاب الله ونقمتِه لغفلتِهم عنها

التَّعبير بقولِه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ هو مجازٌ عن وقائع الله بأعدائِه، من قولهم: أيّام العرب لوقائِعهم وما يقع فيها من الأمور العِظام، فجائزٌ أن يكون هناك مجازٌ بالحذف، والتَّقدير: لا يرجون أيّام غضب الله، ويمكن أن يكون هناك مجازٌ عقليٌّ لعلاقة الزَّمانيَّة؛ إذ أسند عدم الرَّجاء للأيّام، وأراد ما يقع فيها من أحداثٍ جسامٍ، والمرادُ أن يغفروا للَّذين لايتوقَّعونَ أيّام نقمة الله وعذابِه وما فيها من الشَّدائد، ولايترقَّبونها لغفلتِهم عنها وكفرِهم بها، وأجاز بعض المفسِّرين أن يكون المرادُ بأيّام الله نِعَمَهُ وثوابه، فيدخل فيه أيّام نصرِ المؤمنين وأيّام ثوابِهم، ويكون المراد بالأيّام مطلقَ الأوقات ولا مجاز حينئذٍ[1].

نكتةُ إضافة أيام إلى اسم الجلالة:

أيّام عذاب الله ونزول شدائده مهولة عظيمة ليست كسائر الأيّام

أُضيفت الأيّام إلى اسم الجلالة في قولِه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ للتَّعظيم؛ لتفيد الإشعار بعظم النِّقمِ في هذه الأيّام وشدائِدها، وأنَّها أيّام ليست كسائر الأيّام.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 288، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 83، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 161، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70.

دلالةُ جمع أيّام دون إفرادها:

أيّام عذاب الله كثيرة غير منقطعةٍ، كالأعاصير والسّيول الَّتي تحيط بالكافرين

أومأ مجيءُ لفظ الأيّام جمعًا في قوله: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ إلى كثرة هذه الأيّام، ولمّا كانت هذه الأيّام عقابًا للكافرين ونصرةً للمؤمنين ورحمةً بهم؛ أفاد الكلام أنَّ أيّام الله كثيرةٌ متنوِّعة غير منقطعةٍ، كالأعاصير والسّيول الَّتي تحيط بالكافرين وغيرها، وفي ذلك مزيدٌ من التَّهديد والتَّخويف لهم، ولو جاء لفظ اليوم مفردًا؛ لظُنَّ أنَّ الكلام عن يومٍ بعينه.

بلاغةُ الكنايةِ عن حال المؤمنين:

أيّامُ عذاب الله هي أيّام نصرٍ للمؤمنين

لمّا كان تركيب ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ مجازًا مستعملًا في وقائع الله بأعدائه - على قول أكثر المفسِّرين - أفاد بلازمِه على طريق الكناية أنَّها أيّام نصر الله للمؤمنين، فإنزال العذاب على الكافرين يفيد نجاةَ المؤمنين ونصرَهم، فمغفرة المؤمنين للكافرين يعقبها نصر الله لهم والظُّهور على أعداء الله.

نكتةُ حذف متعلَّق قوله: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾:

لمّا جاء التَّركيب غير مقيَّدٍ بكونِه في الدُّنيا أو في الآخرة؛ أفاد عموم الأمر، بمعنى: أنَّ أيّام الله تشمل عقابَه ونقمتَه لأعدائِه في الدُّنيا وفي الآخرة.

نوع اللام ودلالتها ﴿لِيَجۡزِيَ﴾:

تهديدُ الجاني الَّذي يعتدي على المؤمنين

اللّام في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، أي: إنَّما أمروا بأن يغفروا لِما أراده الله من توفية الَّذين آمنوا جزاء مغفرتهم يوم القيامة[1]، ويجوز أن تكونَ اللّام تعليلًا للأمر بالقول؛ لأنَّ القول سببٌ لامتثالهم المجازي عليه، وعلى الوجهين فإنَّ في التَّعليل تهديدًا للجاني الذي لا يرجو أيّام الله، فيعتدي

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 288.

على المؤمنين، كما أنَّ فيه تسليةً للمؤمنين المُجنى عليهم بما أعدَّ لهم من الجزاء الحسن الأوفى[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظ الجزاء:

إرضاء المؤمنين ومكافأتهم على مغفرتِهم للكافرين

عبَّر بلفظ الجزاء في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ﴾؛ لما يفيده اللَّفظ من معنى المقابلة على ما قدَّمه الذين آمنوا من الصَّبر واحتمال الأذى بما يكون فيه الغناء والكفاية[2]، بمعنى: أنَّه تعالى يكافئهم على مغفرتِهم بِما يكون فيه كفايتهم، ويكون مقبولًا عندهم.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارع (يَجزِيَ):

بشارةُ المؤمنين بتجدُّد الجزاء على مغفرتهم، فهو جزاء لا ينقطع ولا يمتنع

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ﴾؛ للإشعار بتجدُّد جزائِه تعالى، وأنَّه مستمرٌّ لا ينقطع، ففيه إيماء إلى أنَّ الجزاء على مغفرتِهم وعملِهم الصّالح لا يختصُّ بالدّار الآخرة، بل يشمل الدُّنيا والآخرة، وإن كان الجزاء الأوفى والأعظم هو في الآخرة، وقد يُقال: إنَّ ذِكر الفعل الماضي في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يشير إلى أنَّ الجزاء على ما قدَّموه في الدُّنيا، فيرشِّح أن يكونَ المراد الجزاء يوم القيامة، وعلى هذا الوجه يكون التَّعبير بصيغة المضارع؛ لإفادة تجدُّد الجزاء واستمرارِه يوم القيامة، فهو جزاء لا ينقطع، ولا يمتنع.

سببُ إضمار فاعل ﴿لِيَجۡزِيَ﴾:

صاحبُ الوقائع التي تحلُّ بالذين لا يرجون أيّام الله هو صاحب الجزاء الذي يجزي به الذين آمنوا

أضمر فاعل ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ العائد إلى الاسم الجليل في قولِه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾؛ إيجازًا للعلم به، وحتّى ينشغلوا بفعل الجزاء نفسه دون الفاعل، وليفيد أنَّ صاحبَ الوقائع الَّتي تحلُّ بالَّذين لا يرجون أيّام الله هو صاحب الجزاء الَّذي يجزي به الَّذين آمنوا، وغفروا لهم، ففيه تقرير لتسلية المؤمنين.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 80.
(2) الراغب، المفردات: (جزا).

توجيه القراءات القرآنية المتواترة في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ﴾:

تنوُّع القراءات تنوُّعٌ في المعنى وتوسيع له

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائيُّ وخلَف ﴿لِنَجۡزِيَ﴾ بالنّون، وقرأ الباقون: ﴿لِيَجۡزِيَ﴾، وقرأ أبو جعفر: ﴿لِيُجۡزَىٰ﴾ بصيغة المبنيِّ للمفعول[1] في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا﴾، وتوجيه هذه القراءات أنَّه على قراءة ﴿لِنَجۡزِيَ﴾ يكون الفاعل ضمير العظمة العائد إلى اللّه تعالى، ويكون الكلام على الالتفات من الغيبة إلى التَّكلُّم، وهو من العدول البلاغيِّ، ونكتة الالتفات: الإشعار بعظمة الجزاء وفخامتِه، وأنَّه جزاء لا يضاهيه جزاء؛ لأنَّه من عند الملك العظيم الواحد الأحد، وعلى قراءة ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ يكون الفاعل ضميرًا مستترًا عائدًا إلى اسم الجلالة، الذي هو أقرب مذكور في قولِه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾، وتقدَّم توجيهه، وعلى قراءة ﴿لِيُجۡزَىٰ﴾ بصيغة المبني للمفعول يكون النّائب عن الفاعل هو الضَّمير العائد إلى المصدر المأخوذ من الفعل، والمقصود: المعنى الحاصل من المصدر، أي: ليُجَزى الجزاءُ قومًا بما كانوا يكسبون، أو يكون الجارُّ والمجرور ﴿بِمَا﴾ هو القائم مقام الفاعل، أو يقال: النّائب عن الفاعل هو ضميرُ المفعولِ الثاني، وعادَ الضَّميرُ عليه لدلالةِ السِّياقِ، أو يقال: أُضمِر الفاعلُ بدلالة السّياق عليه، والتَّقدير: ليُجْزَى الخيرُ قومًا؛ إن كان المراد من لفظ ﴿قَوۡمَۢا﴾ المؤمنين، أو يكون التَّقدير: ليُجزى الشَّرُّ قومًا؛ إن كانَ المراد من اللَّفظ الكافرين[2].

بلاغةُ العدول من الإضمار إلى الإظهار:

الصَّفح عن الذين لا يرجون أيّام الله ليست عن ضعفٍ وذلّة بل هي عن قوّة وصلابة منهم

كان الظّاهر أن يقال: ليجزيَهم بما كانوا يكسبون؛ ليعود الضَّمير إلى الاسم الموصول، أي: ليجزي الذين آمنوا، لكنَّه عدل إلى الإظهار في مقام الإضمار، فقال: ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا﴾؛ ليفيد المدح، فإنَّ لفظ

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 360، وابن الجزري، النشر: 2/ 372.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 289، والعكبري، التبيان: 2/ 1152، والمنتجب الهمذاني: الكتاب الفريد: 5/ 589، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 300 - 301.

القوم في نفسه اسم مدح على ما يرشد إليه الاشتقاق والاستعمال في نحو قول العربِ: يا بنَ القوم[1]، كما أشعرَ اللَّفظُ بأنَّ الذين آمنوا لَيسوا بِمَضيَعَةٍ عِند الله، فإنَّ لَفظ (قَوم) مُشْعِرٌ بِفَريقٍ له قِوامُهُ وعزَّتُهُ[2]، ومن بلاغة العدول ونكتة اختيار لفظ القوم الإيماءُ إلى أنَّ مغفرتهم للَّذين لا يرجون أيّام الله ليست عن ضعفٍ وذلَّة، بل هي عن قوَّة وصلابة، كما يومِئ اللَّفظ بأنَّ من فعل فعلَهم؛ كان له من الجزاء مثلهم، وكان من القوم؛ لأنَّ مَن فعلَ فِعلَ قومٍ؛ نُسِبَ إليهم.

دلالةُ تنكير ﴿قَوۡمَۢا﴾:

تتنوَّع أغراضُ التَّنكير بحسب المعاني المحتملة

تنكير لفظ ﴿قَوۡمَۢا﴾ للتَّعظيم[3]؛ لأنَّ المراد من القوم هم المؤمنون، بقرينة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فهُم معروفون بإيمانِهم، ففي هذا التَّنكير كمالُ التَّعريف والتَّنبيه على أنَّهم لا يَخْفَون، نُكِّروا، أو عُرِّفوا، مع العلم بأنَّ المجزيَّ لا يكون إلّا العاملَ، وهو الغافر هنا، أي: أمروا بذلك ليجزي الله تعالى يوم القيامة قومًا أيَّما قوم، وقومًا مخصوصين بما كسبوا في الدُّنيا من الأعمال الحسنة الَّتي من جملتها الصَّبر على أذيَّة الكفّار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه[4]، هذا وقد جوَّز بعض المفسِّرين أن يرادَ بالقوم الكفرةُ، ويكون التَّنوين للتَّحقير، أي: ليجزيَ قومًا حقيرين ذليلين، أو يكون التَّنوين التَّعظيم، بأن يكون المقصود شدَّة عتوِّهم وبغيِهم[5]، وكأنَّه قيل للمؤمنين: لا تكافئوهم أنتم حتَّى نجزيَهم نحن يوم القيامة بما كانوا يكسبون[6]، كما أجاز آخرون أن يرادَ بالقومِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 342.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 289، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 145.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 423.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674.

العمومُ، ويكون التَّنوين في ﴿قَوْمًا﴾ للشُّيوع والتَّنويع ليشمل المؤمنين والكافرين، والمعنى: ليجزي كلَّ قوم بما كسبوا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ بما يُناسِبُ كسْبَهُم، فَيكونُ وعيدًا لِلمُشرِكينَ المُعتَدينَ عَلى المُؤمِنينَ ووعدًا لِلمُؤمِنينَ المَأمورينَ بالصَّفحِ والتَّجاوُزِ عَن أذى المُشرِكينَ، فيكون قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ على سبيل الإجمال الَّذي يتناول أهلَ الإيمان وأهل الكفر[1].

العِبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب

بلاغةُ فنِّ التَّجريد في لفظ ﴿قَوْمًا﴾:

لمّا كان الذين آمنوا معروفين؛ كان تنكير ﴿قَوْمًا﴾على التَّجريد ليفيد المدح والثَّناء، بمعنى: ليجزي قومًا مخصوصين بما يقصُر عنه البيانُ من الثَّوابِ العظيمِ، ولمّا كانت هذه الآية قد نزلت في عمر بن الخطّاب ﷺ؛كان التَّعبير بـ﴿قَوْمًا﴾ على جهة التَّجريد، بمعنى جرَّد عمر ﷺ من نفسه شخصًا اسمه عمر، كأنَّه غيره، وحكم عليه بأنَّه ليجزى ما صنع من صبره واحتماله من الرَّجل الَّذي شتمه من غفار، وهمَّ أن يبطش به، فكأنَّ عمر ﷺ صار هو القوم على سبيل المدح والثَّناء ورفعة العمل، فقد جاء في سبب نزول الآية أنَّ رَجُلًا من بني غِفار شتم عُمَرَ بنَ الخطّاب ﷺ بمكَّةَ، فهَمَّ عمر أن يَبطِشَ به، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية، وأمره بالعفو والتَّجاوز[2].

فائدةُ الباء في ﴿بِمَا﴾:

الباء في قولِه: ﴿بِمَا﴾ للمقابلة بمعنى: أنَّه تعالى يجزيهم جزاء عظيمًا في مقابل ما كانوا يكسبون، ويحتمل أن تكون الباء للسَّببيَّة، بمعنى بسبب ما كانوا يكسبون.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 423.

(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 83، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 354.

دلالة (ما):

(ما) في قوله: ﴿بِمَا﴾ موصولة؛ لتدلَّ على العموم، وقوّى هذا العموم، وقرَّره حذْفُ العائد في قولِه: ﴿يَكْسِبُونَ﴾، والتَّقدير: بما كانوا يكسبونه؛ ليفيد اللَّفظ بعمومِه استغراق جميع أعمالِهم، كما يفيد التَّعبير بلفظ العموم تفخيم عملِ المؤمنين وكسبِهم.

دلالة التَّعبير بتركيب ﴿كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ جاء بصيغة (كان يفعل)، وهذه الصّيغة تدلُّ على الاستمرار التَّجدُّدي بمعنى تكرُّر الفعل منهم وكثرته، ولا سيَّما إذا استُعمل في معرض المدح أو الذَّمِّ، فإنَّه يُفهم منه التَّكرار في عرف اللُّغة[1]؛ ليفيد أنَّ المؤمنين كانوا مستمرّين على مغفرتِهم للكافرين مع تجدُّد أعمالِهم الصّالحة وكسبِهم الحسن ما داموا في الدُّنيا.

الحثُّ على الاستمرار في العفو والصَّفح وكظم الغيظ عن أذى الكافرين

نكتةُ التَّعبير بلفظ الكسب دون العمل:

عبَّر بقولِه ﴿يَكْسِبُونَ﴾ - دون أن يقال: (بما كانوا يعملون) - لأنَّه لمّا كان الكسب يُطلق على ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال - وليس كذلك لفظ العمل؛ لأنَّه يشمل عمل الخير والشَّرِّ - كان التَّعبير بلفظ الكسب مؤذنًا بأنَّ مغفرتَهم للكفرة وتحمُّلَهم الأذى منهم، فيه خيرٌ كبير للمؤمنين، ومنفعة عظمى لهم، وإن كان المراد مِن القوم ما يشمل الكافرين أيضًا؛ كان في التَّعبير بلفظ الكسب دون لفظ العمل جمْعٌ بين الحقيقة والمجاز؛ لأنَّه في حقِّ المؤمنين اجتلاب نفع وفي حقِّ الكافرين يكون الكلام على طريق الاستعارة التَّهكُّميَّة؛ لأنَّهم كانوا يظنّون أنَّهم بكفرِهم وأعمالهم القبيحة يجلبون منفعةً لهم، لكنَّهم استجلبوا مضرَّة وأيَّ مضرَّة، فعبَّر بالكسب تهكُّمًا بهم.

براعةُ التَّعبيرِ القرآنيِّ في اختيار المفردة الأحقِّ بالمقام

(1) ابن التلمساني، شرح المعالم في أصول الفقه: 1/ 492، والشاطبي، الموافقات: 3/ 258.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"